الدراسات المعجمية العربية في الدراسات الاستشراقية الألمانية التطور والمنجز

د. عبد الملك هيباوي

باحث في الدراسات الاستشراقية، ورئيس المجلس الألماني المغربي بألمانيا

تمهيد:

حظيت الدراسات الاستشراقية الألمانية بتاريخ طويل من الاهتمام بالتراث العربي الإسلامي؛ إذ تعود إرهاصاتها الأولى إلى منتصف القرن الثاني عشر[1]، ثم أخذت تتبلور وتتسع ابتداءً من القرن التاسع عشر مع تطور فقه اللغات الشرقية في الجامعات الألمانية. وقد أسهم هذا الاهتمام في إنتاج رصيد علمي ومعرفي ضخم، اتخذ أشكالاً متعددة من تحقيق النصوص، والتأليف، والترجمة، والفهرسة، والنقد، وإصدار القواميس والمعاجم، حتى غدت هذه الجهود أحد أهم روافد «الدراسات العربية والإسلامية في ألمانيا»، وامتد أثرها إلى فضاءات أوسع داخل أوروبا وخارجها، بما في ذلك العالم العربي والإسلامي نفسه.

إنّ العلاقة التي أقامها الاستشراق الألماني مع اللغة العربية ليست مجرد علاقة بحثية محضة، بل هي مسار من مسارات التفاعل الثقافي والحضاري بين الذات والآخر.

(1) يرجع الباحثون المهتمون بالدراسات الاستشراقية الألمانية اتصال ألمانيا بالشرق، إلى قرون ماضية، وبالتحديد إلى الحروب الصليبية؛ بدءا من الحملة الصليبية الثانية الممتدة ما بين (1147 –1149م)، وعودة حجاجها من الأراضي المقدسة، ووصفهم لما شاهدوه، ونقلهم عنها لشيء من حضارتها، وكذا قيام الرهبان ورجال الدين، ومن بينهم علماء ألمان، بالترجمة عن الأندلس. لكن هذه الرغبة في معرفة الشرق ستشتد أكثر بعد أن فتح الأتراك مدينة إسطنبول عام 1453م. فأخذ بعض العلماء الأوربيون يولون وجوههم شطر الشرق ليحصلوا على مخطوطات عربية من إسطنبول ودمشق وغيرهما، و يتعلمون اللغة العربية.

للمزيدمن التوسع يرجى الرجوع الى الابحاث الاتية: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج1، ص،20.عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص 136 وما بعدها،قارن ذلك ب:

- Hans Robert Roemer, Araber und Deutsche, Begegnungen in einem Jahrtausend, Herausgegeben von Friedrich H. Kochwasser und Hans R. Roemer, Horst Erdmann Verlag, 1974, S. 6, A. Schimmel, Der Islam, Eine Einführung, Philipp Reclam Jun, Stuttgart, 1990, S. 8-9

فالخبرة العلمية التي تراكمت لدى المستشرقين الألمان في دراسة التراث العربي الإسلامي ــ عموماً ــ وفي دراسة اللغة العربية على نحو خاص، أسهمت في تقديم قراءة مختلفة لهذا التراث، ومكّنت من إعادة اكتشاف الذات الثقافية العربية من منظور خارجي، وهو ما يفتح آفاقاً معرفية مهمّة للدارس العربي اليوم لفهم تمثلات الآخر لهذا التراث وطرائق اشتغاله عليه.

وقد أولى المستشرقون الألمان اللغة العربية اهتماماً خاصاً، تجلّى في تدريسها منهجياً داخل المعاهد والجامعات، وفي ترجمة نصوصها، وفي العناية بفقه اللغة، وفي إصدار قواميس ومعاجم مزدوجة اللغة أو متخصصة. ويُعَدّ فقه اللغة العربية أحد أهم المجالات التي حظيت باهتمام مؤسسات الدراسات الشرقية في ألمانيا، إذ وجد الطلاب والباحثون إمكانية دراسة نصوص عربية مختارة، شعرية ونثرية، ضمن مسار أكاديمي يمتد من التعليم القاعدي إلى البحث المتخصص.

وانطلاقاً من هذا الإطار، تسعى هذه المقالة إلى رصد وتقييم جهود المستشرقين الألمان في حقل الدراسات المعجمية العربية، ولا سيما ما يتعلق بإصدار القواميس والمعاجم العربية. وستقارب المقالة الأسئلة التالية:

- ما أبرز المعاجم والقواميس العربية التي أسهم المستشرقون الألمان في تصنيفها أو نشرها؟
- ما المناهج العلمية والأدوات التي اعتمدوها في بناء هذه المعاجم؟
- ما القيمة العلمية التي أضافتها هذه الجهود إلى البحث اللغوي العربي؟
- وأخيراً: ما الجديد الذي أدخله المشروع المعجمي الألماني في هذا الحقل المتصل مباشرة بتاريخ اللغة العربية وعلومها؟

بهذه الأسئلة يسعى المقال إلى إضاءة جانب مهم من تاريخ التفاعل العلمي بين العربية والبحث الألماني، وإبراز ما قدمه المستشرقون من إضافة نوعية في خدمة العربية ومصادرها المعجمية.

1. حاجة المتشرقين الألمان لإصدار المعاجم العربية

غير خاف على المستشرقين الألمان، ممن اهتموا بفقه اللغة العربية وآدابها، ما أنجزه نظراؤهم من علماء اللغة العرب في العصر الوسيط، من أعمال تستحق الإعجاب والتقدير في ميدان المعاجم، بداية من القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) حيث صنف

الخليل الفراهيدي معجمه الشامل «العين»؛ الذي نظم فيه أصول الكلمات ومصادرها وفق نظام صوتي منطلقه حرف العين (ع). ثم صنف إسماعيل بن حمّاد الجوهري كتابه «الصحاح» الذي انتشر انتشارا واسعا. كما يدركون أنه بعد تلك الفترة تتابعت حلقات سلسلة المعاجم الضخمة على مر العصور، نذكر من أهمها: «التهذيب» لمحمد بن أحمد الأزهري، و»لسان العرب» لابن منظور، و»القاموس المحيط» للفيروزابادي، الذي شرحه وعلق عليه، في عشر مجلدات، المرتضى الزبيدي في القرن الثاني عشر الهجري (ق 18م) في مؤلفه الشهير «تاج العروس». ويعرفون أيضا أن علماء العرب قد وضعوا، إلى جانب هذه المعاجم الشاملة، معاجم أخرى متخصصة مثل «المعرب من الكلام المعجمي» لموهوب بن أحمد الجواليقي، و»المقاييس» لأحمد بن فارس، و»أساس البلاغة» للزمخشري. كما ألفوا رسائل تفوق الحصر، تختص بجمع وشرح كل الكلمات المتعلقة بموضوع قائم بذاته مثل: الإبل، والشاة، والنخيل، وخلق الإنسان، وغير ذلك من الحيوانات والنباتات والأشياء. وقد حاول ابن سيده، اللغوي الأندلسي الضرير، أن يضم كل تلك المعاجم الصغيرة المنفردة في معجم شامل، فصنف كتابه «المُخصّص» الذي يقع في سبعة عشر جزءا.[2]

وبناء على ذلك، فإنه من البديهي أن يستعمل المستشرقون الألمان تلك المعاجم والموسوعات العربية في البداية للاستعانة بها في دراستهم، بل من المسلم به عندهم، أنه من العبث إضاعة الجهد وبذل جهود جديدة في هذا المجال طالما أن المعاجم العربية، التي ألفها العلماء اللغويون العرب أنفسهم، متوفرة في كل فرع وموضوع، فضلا عن الثقة الكبيرة التي تحظى بها تلك المعاجم، والأمانة العلمية والدقة اللتين تحلى بهما أجيال من اللغويين العرب والمسلمين.

ولهذا فإن معجم المستشرق الهولندي «يعقوب جوليوس» (Jakob Golius- 1596-1667) مثلا لم يكن يهدف إلى الإتيان بجديد في مجال علم المعاجم؛ فقد اكتفى بترجمة التعليقات الواردة على الجذور اللغوية عند الجوهري والفيروزبادي إلى اللاتينية، مع إعادة ترتيب تلك الأصول ترتيبا جديدا»[3]، وهكذا ظهر عام 1653 م معجمه العربي اللاتيني «Lexicon Arabicum-Latinium»[4]، الذي

(2) Manfred Ullmann, „Das Wörterbuch der klassischen arabischen Sprache«, S. 256.

(3) Ibid, S. 257

(4) يعد هذا المعجم أول معجم عربي –لاتيني حيث لقي نجاحا منقطع النظير في أوروبا، كما يقول عبد الرحمن بدوي، واستمر حوالي قرنين من الزمان المرجع الرئيسي للمستعربين الأوروبيين، وترجمته بالكامل هي : «المعجم العربي- اللاتيني، المستند إلى أفضل أصحاب المعاجم في الشرق. ومعه فهرس لاتيني مفصل جدا يمكن أن يقوم

حل محله، بعد مضي مائة وثمانين عاما على ظهوره، معجم المستشرق الألماني «جورج فرايتاغ» (1788 -Jorge Freitag-1861) في أربع مجلدات ويحمل العنوان نفسه[5]. وقد احتل هذا المعجم، كما تؤكد المصادر، مكانا بارزا لما قدمه من أسس دراسية للمستشرقين الذين جاؤوا بعده، كما ظل مستعملا لوقت طويل نظرا لما اشتمل عليه من ثروة لفظية عربية هائلة[6].

وجاء بعد هذين المعجمين المعجم العربي-الإنجليزي «لإدوارد وليام لين» - (Eduard William Lane- 1801-1876) كمحاولة لتفادي الأخطاء ووجوه القصور التي بدت في عمل «فرايتاغ». وقد اعتمد «لين» في وضع معجمه على «القاموس المحيط» و«تاج العروس». والتزم الدقة في ترجمة الكلمة العربية، ونقل إلى الإنجليزية قدرا ضخما من تراث العرب في علم المعاني وطرائق استعمال الكلمات. وقد حالت وفاته دون إكمال المعجم الذي انتهى فيه إلى حرف «القاف».[7]

وقد يطرح القارئ العربي سؤالا مشروعا مفاده: لماذا أتعب المستشرقون الألمان أنفسهم وبذلوا جهودا مضنية ولايزالون في تأليف المعاجم؟ بل ما الجديد الذي أضافوه إلى اللغة العربية في هذا المجال؟

بدأ علماء الاستشراق الألمان، بمرور الوقت، يتحسسون جوانب النقص والقصور في ميدان المعاجم العربية الكلاسيكية؛ رغم الإنجازات المذهلة التي حققها اللغويون العرب ومقلدوهم من الغربيين في المجال المذكور. وللبرهنة على هذا الموقف، فقد حدد المستشرق الألماني المعاصر، وأستاذ العلوم الإسلامية بجامعة توبنغن، «مانفريد أولمان» – (Manfred Ullmann 1931) أوجه ذلك القصور في ثلاث عناصر أساسية: أولها يتجلى في الطابع المعياري الذي تتسم به تلك المعاجم؛ فهي تذكر نموذجا لغويا، لكنها تهمل التطور التاريخي اللغوي للنموذج المذكور. وثانيها ضيق ومحدودية الرقعة التي تغطيها المعاجم العربية، إذا ما قورن ذلك باتساع دائرة الثقافة العربية، ولذا،

مقام معجم لاتيني عربي. ليدن، 1953» انظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص، 205-206، صلاح الدين المنجد، المستشرقون الألمان...، ج 1، ص،11. قارن ب

- Manfred Ullmann, «Das Wörterbuch der klassischen arabischen Sprache», S. 257. A. Schimmel, Die Aneignung arabischer Literatur in der deutschen Klassik und Romantik, S. 137

(5) Manfred Ullmann, «Das Wörterbuch der klassischen arabischen Sprache», S. 257

(6) فؤاد أفرام السبتاني، دائرة المعارف،ج 12، ص، 3. رودي بارت، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية...، ص،62 يوهان فوك، تاريخ حركة الاستشراق...، ص، 201.

(7) Manfred Ullmann, «Das Wörterbuch der klassischen arabischen Sprache», S. 257

حسب رأيه، فإن الدارس يجد، عندما يحاول المضي قدما في أبحاثه، أن هذه المعاجم تخذله[8]. ويستدل «أولمان» على ذلك بالقول إن اللغويين العرب قد استعملوا في استشهاداتهم الشعر والأمثال المتوارثة في الجاهلية وصدر الإسلام، واعتمدوا، أيضا في أبحاثهم، على الرجوع إلى القرآن الكريم والسنة النبوية، بيد أنهم أسقطوا من اعتبارهم الجذور والمصطلحات التي استعملها المؤرخون والجغرافيون والفقهاء والكتاب والأطباء والكيماويون والفلكيون والمنجمون والرياضيون[9]. أما العيب الثالث في تلك المعاجم فهو فقدان الدقة، الناتج عن عدم التفريق بين المعنى العام أو الإجمالي لجذر الكلمة، وبين المعنى الفعلي الواقعي؛ فللكلمات دقائق وظلال تظهر في سياق النص، وتُحدِّد ضيق المعنى أو اتساعه. ثم إن المعاجم تورِد في أحيان كثيرة بدلا من المعنى الأصلي للكلمة الشيء المعْنيّ، بل ربما تورِد ما يقارب المعنى فقط. وغالبا ما يكتفي اللغويون بتدوين المعنى دون الإشارة إلى كونه حقيقيا أم مجازيا. يضاف إلى هذا كله قدر كبير من الكلمات المجهولة، التي يلجأ اللغوي بعد إثباتها إلى إيضاحها تخمينا دون الإشارة إلى ذلك. كما يحاول اللغويون أحيانا، باسم الزينة الأسلوبية، إعطاء الكلمات معنى تأويليا لم يكن لها في الأصل بدوافع عقدية.[10]

إن الاقتناع بأنه لا ينبغي الاعتماد تماما على المعاجم العربية دفع المستشرقين الأوروبيين عموما، والألمان على الخصوص، إلى التفكير في طريقة جديدة لتلافي ما ظهر من نقص وقصور. فأصبح تتبع الاستعمال اللغوي للكلمة الواحدة بدقة، كما يظهر في الأعمال الأدبية المختلفة على مر العصور، ومحاولة الخروج من ذلك بخط التطور الذي قطعته الكلمة، هو المنهج الجديد في تأليف المعاجم العربية.[11]

كان أول من طبق هذه الطريقة المستشرق الهولندي «راينهارت دوزي»- (Reinhart Dozy - 1820-1883)[12]، وتوج جهوده تلك بإصدار «ملحق المعاجم العربية» (Supplément aux dictionnaires Arabes) في جزأين عام 1881م. يعتبر هذا المعجم مفيدا للغاية، خصوصا في فهم النصوص التاريخية والجغرافية الخاصة بالمؤلفين الأندلسيين والمغاربة. فهو يورد اللفظ، حسب الترتيب الأبجدي العربي، ويتلوه بشرح

(8) Ibid, S. 257
(9) Ibid, S. 257-258
(10) Ibid, S. 258
(11) Ibid, S. 258
(12) «رانهارت دوزي» مؤرخ معروف بليدن اشتهر بأبحاثه في تاريخ العرب في إسبانيا خصوصا بني عباد ملوك إشبيلية وبمعجمه «تكملة المعاجم العربية». انظر عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص، 259 وما بعدها.

المعاني التي استُعمل بها لدى مختلف المؤلفين، وأحيانا بحسب البلدان والمناطق، ويزوِّد هذا كله بالإشارات إلى المواضيع عند المؤلفين العرب، التي ورد فيها هذا الاستعمال. وهذه الألفاظ التي يوردها فهي إما كلمات عامية، أو كلمات عربية فصيحة لكنها استعملت بمعان غير تلك الواردة في المعاجم العربية الفصيحة مثل «لسان العرب» أو «الصحاح» وغيرها. وغالبية هذه الألفاظ تتعلق بما يعرف باسم ألفاظ الحضارة: أي الصناعات، والحياة اليومية، والأدوات، والحرف المختلفة.[13]

2. معجم عصري للعربية الفصحى

لا شك أن تطور الدراسات المعجمية والمعجماتية في أوروبا خلال القرن الماضي، وما أنجزته من معاجم تاريخية خاصة بلغاتها،حرك نسبيا التفكير في إنجاز معجم لغوي تاريخي. ولقد شكل معجم أوكسفورد حدثا تاريخيا[14]، وكان من الطبيعي أن يجلب اهتمام اللغويين على اختلاف مشاربهم في محاولة لتطبيق التجربة نفسها على لغاتهم الوطنية أو على اللغات التي يهتمون بها ويدرسونها. وهذا ما جعل بعض المستشرقين المهتمين باللتراث اللغوي العربي يطرحون ضرورة إيجاد معجم لغوي تاريخي من «دوزي» إلى «فيشر»؛ حيث ركز الأول على الأدب العربي في فترة ما بعد الكلاسيكية، وكان على دارسي المشرقيات من بعده، أن يحاولوا وضع معجم تحليلي تاريخي لعصور ازدهار الأدب العربي منذ القرن الأول وحتى القرن الرابع الهجري الموافق للقرن العاشر الميلادي.[15]

لقد تطلع المستشرق الألماني «أوغوسْت فيشر» إلى ذلك الهدف، عندما نشر عام 1907م خطة لوضع «معجم عصري للعربية الفصحى»، وهو مشروع لمعجم عربي تاريخي شامل يستند في كل معنى ينطوي عليه اللفظ إلى شواهد، خصوصا من الشعر، ومن الشعر الجاهلي والأموي على وجه التخصيص. لقد شعر «فيشر» بنقص المعاجم العربية لافتقارها إلى الشواهد في كل حالة، فوضع هذا المشروع الضخم، وأعلن عنه لأول

(13) قارن بين عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص، 263 و
- Manfred Ullmann, «Das Wörterbuch der klassischen arabischen Sprache», S. 258

(14) تمثل تجربة معجم أسكفورد The English Oxford Dictionary نموذجا رائدا، اذا اشترك عدد كبير من العلماء في انجازه منذ سنة 1855 واستغرق طبعه من سنة 1884 إلى سنة 1924 / 1928، وهو ليس معجما تاريخيا، إلا أنه استطاع استقصاء كل مفردات اللغة الإنجليزية داخل سياقتها اللغوية
- La lexicographie historique et Oxford Englich Dictionary, par Timothy, Benbow
المجلة المعجمية، ع. 5، 6، 1990/1989

(15) Manfred Ullmann, „Das Wörterbuch der klassischen arabischen Sprache«, S. 258

مرة أثناء انعقاد مؤتمر الفيلولوجيين الألمان في بازل عام 1907م، ثم في المؤتمر الدولي للمستشرقين الذي انعقد في كوبنهاغن عام 1908م، ثم في المؤتمر الذي انعقد في أثينا عام 1912م[16]. لقد طرح «فيشر» هذه الفكرة على الأكاديميات الأوروبية التي رحبت بها في اجتماع بازل للغويين والمدرسين الألمان[17]، ثم عرضها على المؤتمرين الدوليين للمتشرقين اللذين عقدا في كوبنهاغن ما بين 1912م و1924م، إلى أن استقر به الترحال بمصر سنة 1936م، عندما وافقت الحكومة المصرية على تبني مشروع فكرته، وشرع آنذاك مجمع اللغة العربية بالقاهرة في إمكانية إنجاز معجم لغوي تاريخي شامل، بوصفه أداة علمية لأي تأليف معجمي لاحقا، وانتهى هذا المشروع ليقبع في الرفوف بعد وفاة فيشر سنة1949م.[18]

بدأ «فيشر»، بمساعدة بعض طلبته ومعيديه، العمل في هذا المعجم عام 1913م، بوضع آلاف الجذاذات المستخرجة من المجاميع والدواوين الشعرية[19]. كما استعان ببعض الجهود التمهيدية التي قام بها قبله بعض أساتذة العربية بالقسم العربي بجامعة لايبزيج (Leipzig) الألمانية، خصوصا «هاينريش فلايشر»، وتلميذه «هاينريش توربكيه»، هذا الأخير الذي ترك عند وفاته مجموعة بطاقات كبيرة جمعها لتأليف معجم[20]. ويقوم معجم «فيشر» على أساس الشواهد المباشرة من المصادر التي تشمل النقوش الجاهلية والشعراء والقرآن والحديث، مرتبا حسب المصادر، ومستمدا من المصادر القديمة حتى القرن الثالث الهجري، ليكون معجما تاريخيا يدل على تطور معاني الألفاظ. وقد قضى أكثر من ثلاثين عاما في جمعه وتنسيقه، وحمل أوراقه وجذاذاته عام 1937م إلى القاهرة، ليعمل عليها مع فريق من الباحثين بإشراف المجمع اللغوي هناك، لكن نشوب الحرب العالمية الثانية وتعطيلها إياه، ثم الوفاة، حالتا بينه وبين إتمامه.

---

(16) قارن بين عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص، 405 وما بعدها و بين
- Manfred Ullmann, «Das Wörterbuch der klassischen arabischen Sprache», S. 258

(17) انظر التفاصيل في المعجم اللغوي التاريخي، فيشر، ص. 29 .32.

(18) نفس المرجع

(19) من أهم تلك الدواوين الشعرية التي استند إليها فيشر في عمله نجد « المعلقات»، و«المفضليات»، و«الأصمعيات» و«الحماسة» للأبي تمام، و«ديوان الهذيليين»، و«دواوين الشعراء الستة الجاهليين» ودواوين عبيد بن الأبرص والمتلمس وأوس بن حجر والخرنق وعامر بن طفيل والسموأل ولبيد والخنساء، و«مراثي شواعر العرب» والحطيئة والشماخ وعمر بن أبي ربيعة ووابن قيس الرقيات والأخطل والقطامي والكميت (الهاشميات) والقحيف العقيلي والمتنبي. ومن كتب الحديث البخاري وأجزاء من تارخ الطبري. وقد بلغ عدد الجذاذات حتى عام 1918م حوالي 12 ألف جذاذة. انظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص، 406

(20) Manfred Ullmann, «Das Wörterbuch der klassischen arabischen Sprache», S. 258

وتجدر الإشارة إلى أن المواد والجذاذات التي جمعها «فيشر» قد بددها المجمع، خصوصا أثناء انتقال مقره من شارع قصر العين بالقاهرة إلى شارع مراد بالجيزة، ولم يبق منها إلا القليل الذي حاولت جامعة توبنجن الألمانية وغيرها من الجامعات تصويره، ابتغاء استئناف العمل في هذا المعجم. لكن الأمر وقف عند هذا الحد، وضاع الشطر الأكبر الذي صنعه فيشر ومساعدوه.[21]

3. معجم اللغة العربية الفصحى

بعد محاولة «فيشر» تأليف معجم عصري للعربية الفصحى، والتي فشلت لظروف موضوعية، سيظهر أبرز معجم يتجلى فيه روح ونموذج العمل الجماعي لأجيال من المستشرقين الألمان، ويتصف بالشمول، وهو المعجم الضخم المسمى «معجم اللغة العربية الفصحى. ألماني-عربي-إنجليزي»(Wörterbuch der klassischen arabischen Sprache. Deutsch–Arabisch–Englisch,) ؛ الذي شرعت في إنجازه جامعة توبنجن منذ ثلاثينيات القرن الماضي. وقد اشتغل عليه في البداية المستشرق «إنو ليتمان»[22]، ثم واصل العمل عليه تلميذه المستشرق «يورج كريمر»- (Jörg Krämer- 1961-191) منذ 1957 م، ثم تلميذ هذا الأخير «هلموت جيتيه» (Helmut Gätje) وكذا طائفة من المستشرقين الكبار، نذكر منهم «انتوان شبيتالر» (Anton Spitaler) أستاذ اللغات السامية بجامعة ميونيخ و»مانفرد أولمان» (Manfred Ullmann)، الذي اشتغل عليه في جامعة توبنجن.[23]

وقد أريد لهذا المعجم أن يكون مستقلا عن مشروع معجم «فيشر»، رغم أنه أفاد منه ومن المعاجم السابقة التي أشرنا إليها في هذا المبحث، مثل قاموس «فرايتاغ»

(21) قارن بين عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص، 406. رودي بارت، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية...، ص، 62، 63. صلاح الدين المنجد، المستشرقون الألمان...، ج 1، ص، 11. مجلة فكر وفن، ع 6، س 1965م، ص 45 وكذا:

- Manfred Ullmann, «Das Wörterbuch der klassischen arabischen Sprache», S. 259

(22) اشترى «إنو ليتمان» محتويات مكتبة تيودور نولدكيه (ت 1930م) لجامعة توبنجن. وقد كان من من بين محتويات المكتبة المذكورة نسخة من معجم «فرايتاغ» العربي اللاتيني الذي أشرنا إليه سلفا، وقد ملأ نولدكيه هوامشه بعشرات الآلاف من الملاحظات والإضافات خلال حياته العلمية الطويلة. وقد أدرك «ليتمان» قيمة الثروة العلمية لتلك الملاحظات فعهد إلى بعض تلامذته من بينهم «يورج كريمر» بمهمة تصنيفها وتقييمها، وتوصل «كريمر» إلى نشر ملزمتين كبداية عام 1952م و1954م تحتويان على حرف الألف، وأطلق على هذا العمل اسم «قاموس تيودور نولدكه للغة العربية الفصحى» انظر:

- Manfred Ullmann, «Das Wörterbuch der klassischen arabischen Sprache», S. 259

(23) Ibid, S. 259-260

وما ضمه من ملاحظات وإضافات من طرف «نولدكه» وقاموس «إدوارد وليام لين». فقد سافر المستشرق «يورج كريمر» إلى القاهرة شتاء 1953-1954 م لدراسة بطاقات «فيشر»، واستطاع تصوير بعضها، وتوصل إلى استنتاج مؤداه أن بطاقات «فيشر» ليست من الاتساع والأهمية بالدرجة التي تخيلها جمهور المستشرقين، بيد أنه يمكن إذا استكملت بملاحظات «نولدكيه» على قاموس «فرايتاغ» أن تكون أساسا لوضع القاموس المنشود. ولذلك رُئي أن لا يكون البدء بحرف الألف بل بحرف الكاف، ذلك أن معجم «لين» انتهى بحرف القاف، وبذلك يمكن إكمال هذا الأخير شكليا على الأقل؛ إذ إن الطريقة الجديدة مختلفة تماما.[24]

أصدر «كريمر» الملزمة الأولى من المجلد الأول من «معجم اللغة العربية الفصحى» عام 1957م، وظهرت الملزمة الثانية التي وصلت إلى حرف الكاف عام 1966م، وحالت العقبات الشخصية والمالية والعلمية دون متابعته نشر أجزاء المعجم بالسرعة والانتظام، كما خطط له من قبل. ولذا فلم ينته المجلد الأول إلا عام 1970م، ثم ظهرت عام 1973م الملزمتان الأوليان من المجلد الثاني (لا- لبس)[25]. وقد انتقل العمل عليه، قبل أكثر من ربع قرن، إلى جامعة ميونيخ، حيث وصل العمل فيه إلى حرف «الميم»[26]. وتطلب العمل لإتمامه سنين عديدة، على رغم الإمكانات التقنية المتطورة، والظروف المادية المتوفرة، والعمل الجماعي المتواصل.[27]

هذا وقد استند المجلد الأول من هذا المعجم الجديد إلى 680 مصدرا صنفت، كما يذكر «أولمان»، تصنيفا علميا، بحيث يمكن العثور على الكلمة المثبتة في القاموس في تلك المصادر بسرعة، إذا أريد الرجوع إليها للتثبت والمراجعة، بيد أن جزءا كبيرا من تلك المصادر تم تفريغه وتصنيفه على شكل مقتطفات.[28]

---

(24) انظر:

Manfred Ullmann, «Das Wörterbuch der klassischen arabischen Sprache», S. 259-260

(25) قارن بين رودي بارت، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية...، ص 98. تطور مدارس الاستشراق الألماني في القرن 20،صحيفة الحياة، ع 13894، بتاريخ 2000/04/09.

Manfred Ullmann, «Das Wörterbuch der klassischen arabischen Sprache», S. 260

(26) ينظر : رودي بارت، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية...، ص 98. تطور مدارس الاستشراق الألماني في القرن20، صحيفة الحياة، ع 13894، بتاريخ 2000/04/09.

(27) عندما نتأمل هذا العمل الضخم، ندرك حقا كم كان عمل ابن منظور (630هـ - 711هـ) معجزا عندما أصدر قاموسه الضخم «لسان العرب» في خمسة عشر مجلدا، وما يزيد على ثمانية آلاف صفحة.

(28) Manfred Ullmann, «Das Wörterbuch der klassischen arabischen Sprache», S. 260

ومن ناحية أخرى فقد تميز هذا المعجم باعتماده الجديد على المصادر، خلاف المعاجم التي سبقته، وهذا ما جعله يتحرر تدريجيا من الرجوع إلى بطاقات «فيشر» وملاحظات «نولدكه». فإذا كانت مقتبسات «فيشر» تقتصر على المصادر المؤلفة حتى عام 300 للهجرة، الموافق ل 913 للميلاد، فإن القاموس الجديد قد رجع أحيانا إلى مصادر ومراجع أحدث، اقتناعا عند الباحثين الألمان، أن الطابع المعياري للغة العربية الفصحى يجعل تحديدها مربوطا بعوامل المعنى لا بعوامل زمنية.[29]

وقد أخذ المستشرقون الألمان في الاعتبار مجالات علمية في تأليف هذا المعجم الشامل، وهي مجالات استبعدها علماء اللغة العرب، وكذا «فيشر» في مشروع معجمه، ونعني بذلك مؤلفات العلوم الطبيعية والطب، والفلسفة وعلم الكلام والكيمياء والصناعات اليدوية. كما لم يهمل العاملون في هذا المعجم الأعمال المترجمة عن اليونانية، وهي أعمال ظهرت آنذاك أهميتها في البحث العلمي؛ ومنها المترجمات عن «جالينوس» و«أبقراط» و«ديوسقوريدس» و«أرسطو» و«أفلوطين» و«أرطاميدورس» وغيرهم، وهي مؤلفات ترجمت إلى العربية في القرن الثالث الهجري، في عصر حفل بأحداث عظيمة في النواحي الفكرية والسياسية والاجتماعية والدينية، صبغت العالم الإسلامي بصبغة معينة استمرت وقتا طويلا.[30]

وإذا كانت تلك الترجمات المذكورة من العوامل المساعدة قي هذا التطور، إذ أثْرت اللغة العربية بإمكانات تعبيرية وعلمية كبيرة، فإن المستشرقين الألمان، العاملين في القاموس، قد عمدوا إلى إثبات الأصل اليوناني إلى جانب الترجمة العربية، ليسهل على الباحث متابعة النماذج التي أبدعت تعبيرات جديدة في بيئتها الجديدة.[31]

هذا وقد استند العاملون على «معجم اللغة العربية الفصحى» إلى آلاف الاستشهادات. وقد نفاجأ إذا علمنا أن المجلد الأول فقط، من المعجم تضمن 43 ألفا من الاقتباسات والاستشهادات. ويدرك الباحثون الألمان، من ناحية، أن هذه الكثرة من الاستشهادات لم تكن عبثا، بل إنه بدونها كانت أمور كثيرة ستبقى غامضة، وبالتالي سيواجه المرء الصعوبات نفسها التي يواجهها المتأمل في المعاجم العربية. ومن ناحية أخرى، يدركون التعارض أو الاختلاف بين المعنى العام للكلمة، وبين استعمالها في موضع بعينه، ولذا كان عليهم أن يحاولوا في هذا القاموس الموسوعي إيضاح معنى الكلمة في صيغها الشاملة، ولا يمكن تحقيق ذلك إلا بالشواهد، ثم فرز تلك الشواهد وتنظيمها

(29) Ibid, 260-261
(30) Ibid, 261-262
(31) Ibid, 262

وتصنيفها، وتأتي عند هذا مخاطر التجريد، فالمعنى العام للكلمة لا يتسع لتغطية استعمالاتها الواقعية في كثير من الأحيان. ولما كان الغرض الرئيسي هو فهم الكلمة في استعمالاتها الواقعية، كان واضحا أن ذلك يتحقق عن طريق الاستشهاد بمواطن ترد فيها الكلمة في استعمالاتها المختلفة، وبذلك يمكن فهم إمكانيات الكلمة في استعمالات مختلفة؛ ولذا فإن الاقتباسات هي عماد هذا المعجم الموسوعي.[32]

وقد يتساءل القارئ العربي عن الجديد في «معجم اللغة العربية الفصحى» هذا، لذلك يوضح المستشرق «إنو ليتمان»، أن الجديد في هذا المشروع يتجلى، من ناحية، في أنه بعد فرز الشواهد يمكن تحديد المعنى الأصلي للكلمة واستعمالاتها المجازية، كما يمكن تحديد خط تطوري لمعاني الكلمة بتتبع أول الاستشهادات وآخرها، وهنا يتحدد المألوف في اللغة وغير المألوف، والكلمات التي راجت وانتشرت وتلك التي ضمرت أو اختفت، ويمكن استعمال ذلك في تقييم تجديد كاتب أو شاعر معين، وربما ساعد ذلك أيضا على تكوين إدراك تقريبي للُغَتي الشعر والنثر، ومن ناحية أخرى، فإن هذا العمل الجبار قد يسهم في إمكانية تحديد خطوط عامة للتطور الثقافي، من خلال اختلاف استعمالات الكلمة في عصور مختلفة، ولدى شعراء مختلفين[33]. ويضرب «ليتمان» لذلك مثالا بلفظ «اللؤلؤة» واستعمالاته المختلفة لأغراض مختلفة؛ فلفظ «اللؤلؤة»، في التراث العربي الإسلامي، قد فتن الشعراء العرب على مدار العصور، بدءا ومصيرا، ووجودا وروعة، فشبهوا ثنايا الحبيبة بها، كما شبهوا بها قطرات الدمع، وحبيبات الطل، والمطر وزبد الخمر. وتجاوزوا ذلك إلى الأشياء والأحياء، ككؤوس الخمر، والمواكب والدراري، والورود والجواري والغلمان والوجوه والظباء. واستعملوها،أحيانا، لتقوية الإحساس بروعة بعض المجردات كالكلمات والحكمة. وقد عرض المعجم الجديد (462/-49) هذه الثروة من التشبيهات والاستعمالات المجازية فيما يزيد عن ستة أعمدة. وبالشواهد فقط، يستطيع القارئ تتبع نشأة الصور البيانية وانتقالها، وإبداع الشعراء في خلق نواح جديدة للصورة تكَوُّنا واستعمالا، ثم تجديدهم في ربط الصور والمداخلة بينها، كما فعل أبو المطاع بن ناصر الدولة حين قال:

«ورأيت منه مثل لؤلؤ عقده من ثغره وحديثه ودموعه»

(32) Ibid, 262
(33) Ibid, 263

لقد شبه كشاجم الباقلاّ باللآلئ، والمأمون القشمش باللآلئ، بينما ذهب أبو نواس إلى تشبيه فتحتي أنف الحمامة باللآلئ»[34]. وهكذا فإن للشواهد الكثيرة، التي أوردها المعجم دورا كبيرا، أيضا في اطلاعنا على التطور العلمي في فن معين أو تخصص منفرد.

لا شك أن هذا العمل عند اكتماله سيفاجئ الباحثين العرب وغير العرب بمعلومات جديدة، بل ربما سيدفع الباحثين والقراء العرب، وكذا غيرهم ممن يهتمون باللغة والأدب العربيين، إلى إعادة النظر في كثير من المعارف والمعطيات، كما سيساعد على إبراز الدراسات العربية في ضوء معايير واكتشافات جديدة.

4. معاجم أخرى

وحتى تكتمل الصورة، نذكر بعجالة أسماء معاجم أخرى لا تقل أهمية عن تلك التي ذكرناها، من أهمها «معجم الكتابة العربية في العصر الحاضر» (Wörterbuch der arabischen Schriftsprache der Gegenwart)، الذي ظهر عام 1952 لصاحبه «هانز فير»، وهو معجم عربي - ألماني لاغنى عنه، حسب عبد الرحمن بدوي، لقارئ اللغة العربية المعاصرة[35]. وقد أعيد طبعه أربع مرات، وأضيف إليه ملحق عام 1959. أما من حيث منهج تأليفه، فقد رتب «فير» ألفاظ هذا المعجم حسب جذورها، وجعله يمتاز باشتماله على الاصطلاحات الفنية الحديثة، وعلى عدد وفير من الكلمات العامية، في لهجات البلاد العربية المختلفة. كما تم إخراج طبعة إنجليزية له بالتعاون مع المستشرق البريطاني «ملتون .كووان» –Milton. Cowan- عام 1961م.[36]

كما نذكر «قاموس اللغة العربية الحديثة واللغة الألمانية» الذي وضعه «أدولف فارموند» (Adolf Warmond- 1827-1913)في مجلدين، و«القاموس العربي الألماني»، الذي أخرجه «أرنست هاردر»(Ernst Harder-1927-1854) و«القاموس العربي الألماني الخفيف» الذي وضعه «ج. كرال» عام 1964، و«القاموس الألماني العربي للغة الدارجة في فلسطين ولبنان» الذي ألفه «ليونهارد باور» و«انتور شبيتالر».[37]

(34) Ibid, 263

(35) نجيب العقيقي، المستشرقون، ج 2، ص، 806. عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص، 413. رودي بارت، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ص، 99.صلاح الدين المنجد، المستشرقون الألمان، ج1، ص، 11.

(36) عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص، 413

(37) رودي بارت، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ص، 99-61.

كما نذكر «معجم الفن الإسلامي» لصاحبه «فرانتس تيشنر» Franz Täschner - (ت 1967)[38]، و«معجم اللغة المصرية» الذي يعد إنجازا عظيما للاستشراق الألماني، لصاحبه «إرمان» بمشاركة علماء ألمان وأجانب.[39]

ومن المعاجم الأخرى التي لم تكتمل أعمالها، يبرز معجم للشعر العربي القديم، الذي شرع في إنجازه «يوزوف هوروفيتز»- (Joseph Horovitz-1931-1874)، من خلال تفريغه للدواوين العربية المطبوعة للشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين، حتى آخر العصر الأموي في بطاقات[40]. كما شرع «جوستن شريجله» في إخراج معجم ألماني عربي كبير. ولا ينبغي أن ننسى مشاركة المستشرقين الألمان المهمة في إخراج «المعجم المفهـرس لألفاظ الحديث»[41]، إضافة إلى الدراسات المهمة والمقالات التي نشروها حول المعاجم العربية، نذكر منها باختصار: «دراسات في ملحق دوزي للمعاجم العربية» لفلايشر، و«الكلمات الأجنبية الآرامية في اللغة العربية» لزيجموند فرنكل، و»ألفاظ مجموعة البخاري » لريشر[42] ، و«كتاب العين ودراسات المعاجم العربية» لشتيفان فيلد، و«دراسات في المعاجم العربية» لهلموت جيتيه، و«دراسات في المعاجم العربية القديمة» ليورج كريمر وغيرها.[43]

بعد هذا السرد لإنجازات المستشرقين الألمان في تأليف المعاجم، وجلها في اللغة العربية الفصحى، لا يمكن فهم ادعاء بعض الباحثين العرب[44]، الذين اعتبروا معظم هذه المؤلفات قد اتجه إلى اللهجات، وأن هذه الدعوة لتعميم اللهجات ورعايتها، لم تكن لصالح البحث العلمي، بل هي لإشعال الفتن المحلية والقوميات غير العربية.

إن استعراض المسار التاريخي للدراسات المعجمية العربية في جهود المستشرقين الألمان يكشف عن حقيقة علمية واضحة، مفادها أنّ اهتمامهم لم يكن عابراً أو وظيفياً، بل كان مشروعاً بحثياً متكاملاً ارتكز على رؤية معرفية عميقة ومنهجية صارمة. فقد نظر المستشرقون إلى اللغة العربية بوصفها نظاماً لغوياً وثقافياً متكاملاً، وبوصفها مفتاحاً

(38) نجيب العقيقي، المستشرقون، ج 2، ص، 794-722.

(39) Enno Littmann,Der deutsche Beitrag zur Wissenschaft vom Vorderen Orient, S.10

(40) عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص، 631

(41) رودي بارت، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ص، 62، 63، 99.

(42) المرجع نفسه، ص، 61.

(43) المرجع نفسه، ص، 97، 98.

(44) محمد أبوالفضل بدران، الاستشراق الألماني المعاصر، مجلة الوعي الثقافي الإليكترونية، ع، 532، تاريخ العدد 2010/09/03

لفهم التراث العربي الإسلامي ومصادره الأصلية، وليس مجرد أداة للترجمة أو التواصل.

لقد بدأت علاقة المستشرقين الألمان بالمعجم العربي بالاستفادة مما راكمه اللغويون العرب في القرون الوسطى، انطلاقاً من معاجم الفراهيدي والجوهري وابن منظور والزبيدي وغيرهم، إدراكاً منهم لقيمتها العلمية والمنهجية. غير أنّ هذا الاستخدام سرعان ما تحول إلى نقد علمي واعٍ، كشف جوانب قصور في تلك المعاجم، أبرزها: طابعها المعياري الثابت، وغياب التتبع التاريخي لتطور المعنى، وإغفالها لمصطلحات العلوم والفلسفة والفلك والطب، أو ما يُسمّى اليوم بـ «مصطلحات الحضارة». ومن هذا النقد نشأت الحاجة إلى مشروع معجمي جديد، يقوم على التوثيق والتتبع التاريخي والاستشهاد بالنصوص.

وقد مثّل أدب الاستشهادات – بوصفه منهجاً – أهم إضافة قدمها المستشرقون الألمان للمعجمية العربية، بدءاً من أعمال دوزي، وصولاً إلى المشروع الأضخم: «معجم اللغة العربية الفصحى (ألماني–عربي–إنجليزي)» الذي تشرفت جامعة توبنجن بقيادة مراحله العلمية. وتميّز هذا المعجم بأربعة عناصر جوهرية:

1. الاعتماد المباشر على النصوص الأصلية: شعر جاهلي وأموي، القرآن الكريم، الحديث، النقوش، وكتب العلوم المترجمة.
2. التتبّع التاريخي للّفظ وتطور دلالاته عبر العصور المختلفة.
3. إدراج المصطلحات العلمية والحضارية التي لم تحظَ بعناية في المعاجم العربية القديمة.
4. تحويل المعجم من قائمة تعريفات إلى بنك معرفي وثائقي يقوم على آلاف الشواهد النصية.

وتكمن قيمة هذا الإنجاز في أنّه نقل البحث المعجمي العربي من مرحلة الوصف إلى مرحلة التحليل والتفسير التاريخي للمعنى، كما أسهم في إعادة قراءة التراث اللغوي العربي بمنهجيات حديثة تنتمي إلى علوم المعاجم التاريخية والمعجماتية (Lexicography / Lexicology).

وبناءً على ما سبق، يمكن استخلاص النتائج الآتية:

- إنّ المشروع المعجمي الألماني أعاد الاعتبار للمادة اللغوية في سياقاتها الأصلية، وربط الكلمة بالنص، والنص بالتاريخ، والتاريخ بالثقافة.

- لقد أنتج المستشرقون الألمان نموذجاً للمعجم العلمي الجماعي طويل الأمد، ما يزال غائباً – في كثير من الأحيان – عن المؤسسات اللغوية العربية.
- أتاحت هذه الجهود للباحث العربي رؤيةً جديدة لتراثه اللغوي، واعتماداً على أدوات حديثة في الفهرسة والتحقيق والبحث المعجمي.
- تثبت هذه المشاريع أن فهم التراث اللغوي العربي لا يكتمل دون قراءة الآخر، ودون استثمار ما قدمه من أدوات معرفية حديثة.

وبذلك، لا يمكن النظر إلى هذه الجهود إلا باعتبارها علامة فارقة في تحول الدرس المعجمي العربي من مرحلة الجمع إلى مرحلة التحليل التاريخي العلمي، ومن الانغلاق على الذات إلى تثمير التفاعل الحضاري مع الآخر.

إنّ استعادة هذه التجربة اليوم ليست ترفاً معرفياً، بل ضرورة بحثية لإعادة التفكير في المشاريع المعجمية العربية المعاصرة، وتطويرها بما يستجيب لمتطلبات البحث العلمي واحتياجات اللغة العربية في عصر المعرفة الرقمية.

لقد أظهر المستشرقون الألمان بهذه الأعمال العظيمة والمتميزة، في تأليف المعاجم والدراسات المعجمية، قدرة فائقة على ضبط اللغة العربية وامتلاك ناصيتها. وقدموا للباحثين والدارسين في اللغتين العربية والألمانية خدمات لا تقدر بثمن.